

الوافي في الوفيات

واجتاز البحري مرّةً بالموصل أو برأس عين فمرض بها مرضاً شديداً وكان الطبيب يختلف إليه ويداويه فوصف له يوماً مزوّرةً ولم يكن عنده من يخدمه سوى غلامه وكان بعض رؤساء البلد عنده قد جاء يعوده فقال الرئيس : ليس هذا الغلام يحسن طبخها وعندي طبّاخ من نعتّه من صفته فترك الغلام عملها اعتماداً على ذلك الرئيس وقعد البحري ينتظرها واشتغل الرئيس عنها ونسي أمرها فلما أبطأت عليه وفات وقت وصولها إليه ولم تجيء كتب البحري إلى ذلك الرئيس :

وجدتُ وعدك زوراً في مزوّرةٍ ... حلفت مجتهداً إحسان طاهيها .
فلا شفّى إلا من يرجو الشفاء بها ... ولا علّت كفّ مُلِقٍ كفّاه فيها .
فاحبس رسولك عنّي أن تجيء بها ... فقد حبستُ رسولي عن تقاضيها .
حدّث أبو العنبر الصّيمري قال : كنتُ عند المتوكل والبحري يُنشدّه :
عن أيّ ثَغْرٍ تبتسم ... وبأيّ طَرْفٍ تحتكم .
حتى بلغ إلى قوله :

قل للخليفة جعفر ال ... متوكّل بن المعتصم .
والمجندى ابن المجندى ... والمنعم بن المنتقم .
أسلم لدين محمدٍ ... فإذا سلّمت فقد سلّم .

قال : وكان البحري من أبغض الناس إنشاداً يتشدّق ويتزاور في مشيته مرّةً جانباً ومرّةً القهقري ويهزّ رأسه ومنكبّيه ويُشير بكُفّه ويقف عند كلّ بيتٍ ويقول : أحسنتُ وإيّاك ثم يُقبل على المستعين ويقول : ما لكم لا تقولون لي أحسنت ؟ هذا وإيّاك ما لا يُحسن أحداً أن يقول مثله فضجّر المتوكل وقال : أما تسمع يا صيّمي ما يقول ؟ فقلت : بلى يا سيّدي فمُر بما أحببت فقال : بحياتي اهجّهُ على هذا الرّوي فقلت : تأمُر ابنَ حمدون أن يكتب ما أقول : فدعا بدواةٍ وقرطاسٍ وحضرنى على البديهة أن قلتُ :

أدخلت رأسك في الحرم ... وعلمت أنك تنهزم .
يا بحريّ حذارٍ ويح ... ك من قُضا قِضةٌ ضُغم .
فلقد أسّلت بوادِي ... ك من الهجا سَيلَ العَرم .

وإيّاك حِلْفَ صادقٍ ... وبقبرٍ أحمدٍ والحَرم .
وبحقّ جعفرٍ الإمام ... م ابن الإمام المعتصم .
لأصيّرنّك شُهرَةً ... بين المَسِيل إلى العَلام .

فبأيّ عَرَضٍ تَعْتَصِمُ ... وَبِهَتَكَهْ جَفَّ الْقَلَامُ ؟ .
حيّ الطلول بذى سلام ... حيث الأراكةُ والخِيَمُ .
يا ابنَ الثَّقِيلَةِ والثَّقِي ... لِـ عَلَى قُلُوبِ ذَوِي الذِّعَمِ .
وعلى الصغير مع الكبي ... ر مع المَوَالِي والحَشَمِ .
في أي سَلَحٍ تَرْتَطِمُ ... وبأيّ كَفٍّ تَلْتَقِمُ .
إِذ رَحَلُ أُخْتِكَ لِلْعَجَمِ ... وَفِرَاشُ أَمَكِ لِلطُّلَمِ .
وبنات دارك حانةٌ ... في بيته يُؤْتَى الحَكَمِ .
قال : فخرج مُغَضِباً وأنا أصبح به : .
أدخلت رأسك في الحرم ... وعلمتَ أنك تنهَـزِمُ .
والمتوكل يضحك ويصفّق حتى غاب عنه وأمر لي بالصلة التي كانت أعِدَّتْ له ولما قُتِلَ
المتوكل قال أبو العَنَبَاسِ : .
يا وَحْشَةَ الدُّنْيَا عَلَى جَعْفَرٍ ... عَلَى الْهَمَامِ الْمَلِكِ الْأَزْهَرِ .
على قتيل من بني هاشمٍ ... بين سرير الملك والمَنَبَرِ .
وَإِـ رَبُّ الْبَيْتِ وَالْمَشْعَرِ ... وَإِـ أَنْ لَوْ قُتِلَ الْبَحْتَرِي .
لثَارَ بِالشَّامِ لَهُ ثَائِرٌ ... فِي أَلْفِ نَغْلٍ مِنْ بَنِي عَصَجَرٍ .
يَقْدُمُ هُمْ كُلُّهُ أَخِي ذِلَّةٍ ... عَلَى حِمَارٍ دَابِرٍ أَعُورِ .
فشاعت حتى وصلت إلى البحتري فضحك وقال : هذا الأحقق يرى أنني أُجِيبُهُ عَنْ مِثْلِ هَذَا وَلَوْ
عَاشَ أَمْرُ الْقَيْسِ وَقَالَ هَذَا لَمْ أَجِبْهُ . وَقَالَ الْبَحْتَرِي قَصِيدَةً يَرِثِي بِهَا الْعَلَاءَ بْنَ صَاعِدٍ مِنْ
جَمَلَتِهَا : .
وَلَمْ أَرْ كَالدُّنْيَا حَلِيلَةً وَامِقٌ ... مُحِبٌّ مَتَى تَحْسُنَ لِعَيْنِيهِ تَطْلُوقِ .
تَرَاهَا عَيَاناً وَهِيَ صَنْعَةٌ وَاحِدٍ ... وَتَحْسِبُهَا صُنْعَ لَطِيفٍ وَأَخْرَقِ